علاقة الجزيرة

علاقات الولايات المتحدة بدول المغرب العربى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

قضية الجزية والهدايا

بقلم الدكتور عبد القادر زباديه (*)

حينما ظهرت الولايات المتحدة الى الوجود فى القرن الثامن عشر كانت دول شمال افريقيا قائمة بعد ، وكانت تصبغ على البحر الأبيض المتوسط بوجودها البحرى الذى لايقهر وضعيته الخاصة آنذاك كبحيرة اسلامية وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت أقوى الدول فى شمال افريقيا هى الجزائر ، وهذا قبل أن يحتلها الفرنسيون فى سنة ١٨٣٠ وقد ظلوا يستعمرونها بقوة السلاح والنار التى أعطتهم التفوق بعد الثورة الصناعية التى تمت فى غفلة من المسلمين على الجانب الشمالى للبحر الأبيض المتوسط ، وفى معظم الجهات الأوروبية الأخرى .

لقد ظلت الجزائر أقوى قوة بحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط حتى معركة نفارين Navarin فى سنة ١٨٢٧ التى التأمت فيها كل الأساطيل الأوروبية القوية ضد الأسطول العثمانى والأسطولين المصرى والجزائرى اللذين كانا فى نجدته ، وحينما كان الأسطول الجزائرى قويا كانت جميع الأساطيل الأوربية وكذلك أسطول الولايات

(*) استاذ التاريخ الحديث بجامعة الجزائر

المتحدة الأمريكية تدفع الجزية السنوية وكثيرا من الهدايا الأخـــرى ، وذلك مقابل مرور سفنها التجارية عبر مياه البحر الأبيض المتوسط[١] .

لقد كان للجزائر القوية فى القرن الثامن عشر دورها الكبير فى انجاح الثورة الفرنسية وذلك عن طريق تزويدها لحكومات الثورة الفرنسية بالحبوب ، وكان للجزائر دور سياسى مهم تجاه الثورة الأميركية ، حيث كانت أسبق الدول التى اعترفت بها[٢] .

لم يكن للمحيط الأطلسى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الأهمية التجارية والأهمية العسكرية اللتين له الآن بالنسبة لأميركا ، وهذا باستثناء تجارة النخاسين الأوروبيين ، الذين كانت سفنهم التجارية تمارس نشاطات مربحة وواسعة من جراء نقل العبيد الزنوج من سواحل الغـــرب الافريقى الى الأميركتين بأعداد كبيرة جدا ، والأهمية الأولى فى هذين القرنين كانت لاتزال للبحر الأبيض المتوسط ، وهذا بالرغم من التحول الجزئى لقسم من التجارة العالمية الى المرور برأس الرجاء الصالح الى الموانىء الآسيوية كنتيجة لتزايد حجم البضائع والكشـــوف الجغرافية منذ القرن السادس عشر[٣] .

وبالنظر لأهمية البحر الأبيض المتوسط وموانئه للدول الأوروبية ، فقد كانت ملزمة بدفع الجزية السنوية وتقديم الهدايا الموســـمية لأمراء ودايات الشمال الأفريقى مقابل مرور سفنها فى أمن وسلام فى البحر الأبيض المتوسط ، وذلك حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وأم

---

(١) راجع يحى بو عزيز ، تاريخ الجزائر (الشركة الوطنية للطبـــع والنشر ١٩٦٤) .

(٢) راجع ، أحمد توفيق المدنى ، محمد عثمان باشا ـــ سيرته وحروبه ، الجزائر ، ١٩٢١ .

(٣) راجع ـــ

PHILIP D. Curtin. The Atlantic Slave trade. Wisconsin V. Press, 1975.

تشذ عن ذلك الولايات المتحدة الأميركية فى يوم من الأيام ، وهذا منذ بروزها الى الوجود كدولة مستقلة فى سنة ١٧٧٤ فقد ظلت الولايات المتحدة تدفع الجزية سنوياوالهدايا الموسمية لحكومات الشمال الافريقى الثلاث : طرابلس ، وتونس ، والجزائر ، كما دفعت الجزية المتقطعة لسلطان المغرب الأقصى وخاصة فى نهاية القرن الثامن عشر ، وقد كانت أكبر جزية تدفع للجزائر وهذا لعدة اعتبارات ، منها أن داى الجزائر كان أسطوله أقوى الأساطيل ، ومنها أن علاقته بالولايات المتحدة كانت جيدة منذ البداية[٤] .

لقد كان على علاقة الولايات المتحدة بدول شمال افريقيا أن تكون جيدة ، لا عن طواعية واختيار ولكن لأن منطق القوة كان يقتضى ذلك ، فحينما فكر زعماء الولايات المتحدة فى وقت من الأوقات أن يجابهوا (الاذلال) المفروض عليهم بتشكيل قوة بحرية تجبر (الطغاة المتبربرين) على الرضوخ ، سرعان ما وجدوا حسب تعبير جفرسون « أن نحارب الدول المتبربرة وندفع الملايين كنفقات لتلك الحرب ، ثم نعقد مع حكامها آخر الأمر صلحا ندفع فيه أمولا أكثر وهدايا أكبر من تلك التى تحفظ السلام الدائم فى الوقت الحاضر ع فهو أمر غير اقتصادى أبدا »[٥] .

ولقد كانت الجزية التى تدفع الى دول الشمال الافريقى تشكل عبئا على الولايات المتحدة كما يفهم من مجموع التقارير الخاصة بها ، وعن تقدير مبلغها ذهب جلين تكر الى ايراد مايلى :

---

(٤) بين ١٧٨٥ الى ١٧٨٩ ، كانت الجزائر تمتلك حوالى ٦٠ قرصانية تتراوح مدى تسلحها بين ١٥ و ٣٦ مدفعا ، واربع سفن تجديف محاربة وكذلك مرتبطة ذات ٤٨ مدفعا ، (راجع جلين تكر ، **معارك طرابلس** ، ترجمة عمر الديراوى ابو حجلة ، نشر مكتبة الفرجانى ، طرابلس ١٩٦٧) ، وكانت قوتها البحرية تعادل قوى الدول الثلاث فى شمال افريقيا ص ٩٠ .

(٥) جفرسون الى ادامز فى ١٧٨٦/٧/١١ وادامز الى جفرسون فى ١٧٨٦/٧/٣١ .

« حين ذهب جفرسون الى لندن برفقة جون آدمز لمقابلة سفير طرابلس عبد الرحمن وجد أن تلك الولايات ، وهى أضعف أخواتها المتبربرة ، تطلب ما مجموعه ١٦٠ ألف دولار من الولايات المتحدة ، كما أن السفير الطرابلسى يرى أن تونس ستقبل بدورها بمثل هذا المبلغ ، وكان المطلوب للدول المتبربرة الأربع يرتفع الى حوالى مليون دولار ، وهو رقم ارتفع فى السنين التى تلت ... اذن فالجزية المقترحة والبالغة مليون دولار لهى أكثر من سدس نفقات حكومة الاتحاد بكاملها »[٦] .

والواقع أن الفوائد التى تعود على الاقتصاد الأميريكى من التجارة فى البحر الأبيض المتوسط كانت هى الأخرى كبيرة الأهمية فعلا وساهمت مساهمة قوية فى تطوير وازدهار التجارة الأميركية ، ومن ثم فان المبالغ الهامة التى كانت تدفع الى بلدان الشمال الافريقى مقابل الحصول على جوازات مرور آمن للسفن الأميركية تبعد عنها خطر المضايقة أو الأسر يبدو وأنه كان لها ما يبررها ، فقبل استقلال الولايات المتحدة مباشرة عن بريطانيا كان يشتغل فى الموانى المتوسطية من بحارى الولايات ما لايقل عن ١٢٠٠ بحار كانوا يروجون لحوالى عشرين ألف طن من الحمولة المنقولة بين المستعمرات وموانى البحر الأبيض المتوسط ، تحمل على عدد من السفن كان عددها يتراوح بين ثمانين الى مائة سفينة ، وكانت تلك السفن تحمل العلم البريطانى ، وتستفيد فى أمنها بالبحر الأبيض المتوسط ومداخله الغربية من الجزية والهدايا التى تقدمها بريطانيا ، فلما استقلت الولايات حملت سفنها علما آخر ، وهذا ماجعلها تصبح عرضة لملاحقة السفن المغربية وخاصة الجزائرية ، وأهم حوادث السطو التى تعرضت لها السفن والبحارة الأميركان كان حادث أسر سفينة الكابن اسحاق ستيفنسن المسماة (ماريا) فى شهر يوليو جويلية

---

(٦) المصدر السابق ص٩٦ — ٩٧ .

سـنة ١٧٨٥ حيث أسرها يوم ٢٥ من ذلك الشهر مركب جزائرى ذو أربع عشر مدفعا وذلك قبالة رأس سان فنسان ، حيث كانت تلك السفينة الأميركية قادمة من بوسطن ومتجهة الى ميناء قادس الأسبانى ، ثم فى ٣٠ من ذلك الشهر أسرت السفينة (دوفين) بقيادة الربان أوبرين الذى سيخدم فى السلك القنصلى بالشمال الافريقى فيما بعـد مثل ربان السفينة السابقة بالضبط .

وقد كانت الولايات المتحدة تريد من فرنسا بعد الاستقلال مباشرة أن تضمن لسفنها الحماية التى كانت تقوم بها بريطانيا ، ونصت معاهدة التجارة والصداقة الموقعة بين البلدين فى سنة ١٧٧٨ (على أن يبذل الملك الفرنسى مساعيه الطيبة ما أمكن فى التدخل لدى الدول البربرية لصالح الأميركيين) ، ولكن ذلك لم يكن له أى أثر عملى فى الواقع ، وقد تكاثرت الحكايات فى الولايات المتحدة على سوء المعاملة التى يتلقاها الأسرى فى سجون الشمال الأفريقى ، وكثرت شكاوى العائلات التى لها أسرى وخاصة فـ الجزائر ، وكان داى الجزائر يريد من الولايات المتحدة أن تعقد معه معاهدة حتى تضمن سفنها الأمن ، ولكن حكومة الولايات لـم تفعل شيئا فى هذا الصدد ، وقد عبر الداى حسين باشا عن المـرارة التى كان يشعر بها تجاه تقاعس حكومة الولايات فى هذا الشأن ، وذلك بمناسبة مرور ملاحى السفينة الأسيرة (بولى) أمامه فى سنة ١٧٩٣ حين استقدموا وسفينتهم الى الجزائر ، وقد ألقى عليها القبض أيضـا تجاه قادس وكانت قادمة من بوسطن ، وبعد مداولات عديدة بين رجال السياسة الأميركان جرت فى الكونغرس سنة ١٧٩١ حول أنجع الطرق للتعامل مع حكومات الشمال الافريقى بغية ضمان التجارة والمرور الحر للسفن الأميريكية فى البحر الأبيض المتوسط رفض الكونغرس رفضا باتا الحاح جفرسون على تكوين اسطول قوى ومجابهة شمال افريقة به ، وقبل بديلا عن ذلك فكرة افتداء الأسرى التى كان ينادى بها ساسة

أخرون ، وفى رسالة جورج واشنطن الى الكونغرس بتاريخ ٢٢ فبراير/ فيفيرى ١٧٩١ أكد على أنه سـيتخذ الخطوات العملية لتنفيذ قرار الكنغرس وذلك بمجرد أن يخصص له هذا الأخير المال اللازم لعمليـة الافتداء ، وفى شهر ماى ١٧٩٢ تمكن الكونغرس من رصد خمسين ألف دولار لتغطية نفقات ارسال وفد الى الجزائر ولكن التنفيذ اعترضته عدة طوارىء وتشكلت عدة وفود وتعينت عدة شخصيات للذهاب لمفاوضـة الجزائريين فى آن واحد وكلها لم تصل ولم تباشر العمل باستثناء لجنـة داجيد همفريز التى وصلت الى جبل طارق واشترت الهدايا التى تريد تقديمها للداى وبقيت تنتظر الاذن لها بالدخول الى الجزائر ، ولكنها قبل أن يصلها الاذن وقعت أمامها حادثة أوقفت عملها ، فقد استولى الجزائريون على أحد عشر سفينة أميركية مرة واحدة فى تلك الأثناء وأسروا ١١٩ أميركيا على متنها فكان لذلك أثره الكبير على الولايات المتحدة حيث ارتفعت نسبة تأمينات الشحن فى الموانىء الاميركية من ١٠٪ الى ٣٠٪ مرة واحدة (٧) .

لقد وصلت السفن الجزائرية آنذاك بأعداد كبيرة الى الأطلسى على أثر عقد اتفاق مبدئى بين الجزائر والبرتغال كان قد توسط فيه القنصـل البريطانى فى الجزائر ، الذى كان هدفه خدمة التعاون بين بريطـانيا والبرتغال وجعل هذه الأخيرة تتفرغ أكثر لمصالحها مع بريطانيا ضـد فرنسا ، الا أن ذلك الاتفاق لم يرى من التنفيذ الا وصول السفن الجزائرية الى الأطلسى دون معارضة فى الأيام الأولى واستلاءها على السفن الأميركية المتواجدة بكثرة آنذاك فى تلك المنطقة ، ولقد أبطل ذلك الاتفاق بعد ذلك بقليل ولم ير النور نتيجة لمعارضة ملكة البرتغال نفسها ، أما الولايات المتحدة فقد نجح فيها أنصار جفرسون فى تخصيص المال اللازم لبناء السفن الحربية وتضمن القرار المتعلق بهذا الموضوع انه اذا زال خطر

---

(٧) المصدر السابق ص١١٧ فما بعد . وكذلك اوراق جفرسون وادامز بمكتبـة الكونغرس .

تهديد الجزائر للتجارة الأميركية أو تم الوصول الى عقد معاهدة بذلك الصدد بين الجانبين فان بناء السفن يجب أن يتوقف) • وهذا نظرا للتكاليف الباهظة التى كان يتطلبها ذلك المشروع •

وفى الوقت الذى كانت الولايات المتحدة تبنى فيه السفن كان المفاوضون الأميركان برئاسة همفريز يبذلون المساعى لترضية الداى الجزائرى وعقد معاهدة معه على غرار الدول الأوربية التى تمر سفنها فى مياه البحر الأبيض المتوسط ، ويعود السبب الأول فى ذلك الى أن الولايات المتحدة لم تكن لها حتى وهى تبنى السفن للمجابهة ، الثقة فى أن أسطولها سيتمكن من مواجهة الأسطول الجزائرى ، وهى فكرة قديمة لدى الأميركيين كما أسلفنا ، وبعد أخذ ورد طويلين بين الداى ومفاوضيه الأميركيين تم الاتفاق على أن تدفع الولايات المتحدة للخزينة الجزائرية مبلغ ٦٤٢٥٠٠ دولار فى الحال وتدفع جزية سنوية مقدارها ٢١٥٠٠ دولار فيما بعد ، وقد وقعت تلك الاتفاقية فى ٥ سبتمبر سنة ١٧٩٥ ، وأقرها مجلس الشيوخ الأميركى مع ملحقاتها فى خصوص الهدايا النصف سنوية وماهيتها ومقاديرها الخ ••• التى تدفع للداى ، وذلك فى ٢ مارس سنة ١٧٩٦ •

وبالرغم من الصعوبة التى لقيها الأميريكيون فى الحصول على الأموال اللازمة فى خصوص الجزية والهدايا فقد استجابوا لرغبة الداى فى بناء سفينة (الهلال) وتقديمها له فى سنة ١٧٩٨ مع مجموعة الهدايا والرغبات التى أبداها ، ثم طلب منهم الداى بناء سفينتين أخرتين بعد أن أعجب ببناء وهندسة الهلال ، وماكان منهم الا الاستجابة لرغبته أيضا ، ولكن على مضض ، ففى رسالة الرئيس آدمز الى الكنغرس بتاريخ ٢٣ يوليو ١٧٩٧ التى تضمنت موافقته على تلبية رغبة الداى قال : (ان الداى قد أظهر تقديرا للسفن الأميركية البناء) ثم أردف قوله : (ان الموافقة على رغبة الداى تبدو لى أمرا بالغ الأهمية ، فهو سيدفع تكاليف بناء السفينتين

وثمن تجهيزاتها ، ولما كان قد ساعد فى الحصول على سلم بيننا وبين طرابلس ووعد مثل ذلك مع تونس ، فقد غدا له علينا فضل خاص يدفعنا الى اجابة حاجته) .

وقد سلمت تلك السفينتان الى الداى بابا مصطفى حيث توفى حسن باشا صاحب هذا الطلب سنة ١٧٩٨ قبل الانتهاء من بنائهما ، فانضمتا الى الاسطول الجزائرى واطلق على احداهما اسم (للاعائشة) والأخرى اسم (الحمد لله)[٨] .

لقد أصبح الداى منذ ذلك الحين على صداقة مع الولايات المتحدة ، فتدخل لدى كل من يوسف القره مانى والى طرابلس وحمودة باشا باى تونس فى سبيل اقناعهما ببنود الاتفاقيتين اللتين عقداهما مع حكومة الولايات المتحدة بعد ذلك ، فتم توقيع الاتفاقية الأولى بين أميركا وطرابلس بتاريخ ٤ نوفمبر سنة ١٧٩٦ واقرها مجلس الشوخ الاميركى بعد ذلك بوقت قصير بعد أن أدخل عليها بعض التعديلات الطفيفة فقط ، وتم التوقيع على الاتفاقية الثانية مع تونس بتاريخ ١٧ أغسطس ١٧٩٧ وكانت تجارية فى مجملها ، وقد أقرها مجلس الشيوخ الأميركى أيضا مع بعض التحفظات البسيطة .

وهنا نصل الى مرحلة ربط العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة ودول الشمال الافريقى منذ أخريات القرن الثامن عشر ، فبعد عقد اتفاقيات التجارة والهدايا والجزية هذه عمل الرئيس جون آدامز على اقامة علاقات دبلوماسية وتعيين قناصل لدى حكام المغرب العربى كى يضمن لبلاده الأمن مع هذه البلدان على غرار الدول الأوروبية ، فتعين رتشارد أوبرين قنصلا فى الجزائر وتعين كاثكارت قنصلا فى طرابلس ، وكلاهما كان قد ذاق الأسر والسجن لمدة لست بالقصيرة فى الجزائر وأصبحا خبيرين فى شؤون الشمال الافريقى لهذا السبب ، وهما أول القناصلة الأميركان فى الشمال الافريقى ، ثم تعين بعدهما أيتون قنصلا

---

(٨) المصدر السابق ص١٦٥ .

فى تونس ، فاستقبله الباى حمودة باشا استقبالا طيبا وقبل منه التعديل الذى أدخله مجلس الشيوخ على بنود الاتفاقية المعقودة بين البلدين ، ولكن العلاقات ظل يشوبها شىء من التكدر لفترة نظرا لتأخر الولايات المتحدة فى الافاء بالالتزامات التى كانت تقتضيها بنود تلك الاتفاقيـــة بين البلـــدين .

وأشد ماكان يقلق حاكمى تونس وطرابلس هو الفرق الواضـــــح من حيث عدم سخاء الدفع ومقـــداره الذى كانا يتلقيانه من الولايات المتحدة اذا ماقورن ذلك بالجزائر ، والحقيقة أن عدم المساواة مع الجزائر ظل محور الخلاف مع الولايات المتحدة وهذين الحاكمين ، وقد أدى الى الحرب بينها وبين طرابلس مع بداية القرن التاسع عشر ، فقد كانت الولايات المتحدة تعطى من الجزية لكل بلد وفقا للقوة التى يمثلها أسطولها وبناء على بنود الاتفاقيات المعقودة مع حكومة ، غير أنها ظـــلت لا تتأخر فى الايفاء بالتزاماتها تجاه الجزائر ولكنها تتقاعس باستمرار تجاه باى تونس وباشا طرابلس ، وتتقاعس أكثر تجاه هذا الأخير مما حمله على التصريح غاضبا الى القنصل الأميركى كاثكارت بقوله :

(ان باشا طرابلس مستقل تماما ، وهو يريد أن يعامل على هذا الأساس رغم أنف داى الجزائر وباى تونس وحتى السلطان نفســـه فى اسطمبوم)[٩] .

وهنا انتبهت الولات المتحدة على ماييدوا وأرضت مطالب يوسف القرمانلى حاكم طرابلس لبعض الوقت فتحسنت العـــلاقات بينهمـــا ولكن الى حين ، فقد دخلت الولايات المتحدة آنذاك فى شبه حـــرب مع فرنسا فى بحر الكاريب ، ولذا عملت على الاستجابة لمطالب الباشا سعيا وراء السلم فى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت ظروفها ســـتصبح

---

(٩) تكر ، المصدر السابق ، ص١٩٧ .

عصبية أكثر دون شك فيما لو أضيفت الى متاعبها فى بحر الكاريب متاعب أخرى فى البحر الأبيض المتوسط ، وهو المنطقة التى كانت تجارتها مزدهرة فيها آنذاك بشكل متزايد ، وعلى كل فقد ضمنت السلم المتوسطية لمدة سنتين تعكرت بعدهما علاقاتها مع الباشا وساقتها الظروف الى حرب كانت تكاد تكون فى البداية غير معلنة رسميا ، ولكنها كانت شديدة على كل من الطرفين •

لقد ظل باشا طرابلس يصرح للقناصلة الأميركان كلما قدموله الهدايا المقررة بقوله : (ان هذه الهدايا تكون أعظم تقدرا عندى لو رافقتها سفينة كتلك التى قدمتموها للجزائر أو سفينة ذات صاربين مثلا) ، وظل يزيد من شروطه باستمرار ، حسبما يبدو من الوثائق الأميركية فى هذا الشأن لدرجة أقلقتهم وأصبحوا لايريدون الاستجابة له ، وهذا ماجعله يعلن الحرب عليهم فى آخر الأمر •

ان المتتبع لقضايا علاقات المغرب العربى بالولايات المتحدة خلال فترة الاصطدام فى القرن التاسع عشر يجد أن القناصل الذين أرسلتهم الولايات المتحدة لم يكونوا على درجة كافية من الصبر وسعة النظر الذين يجب على الممثل الدبلوماسى أن يتحلى بهما ، فمعظم تقاريرهم كانت لتعميق شقة الخلاف ، وكان يأتى التريث من الحكومةالأميركيةأكثر مما نراه فى تقارير أولئك القناصل ورسائلهم الى حكومتهم • فالقنصل أيتون مثلا الذى كان معتمدا لدى حمودة باشا باى تونس ، البلد الذى لم يدخل فى حرب مع الولايات المتحدة فى تلك الفترة أبدا ، يكتب لحكومته : (على الدولة أن تختار بين تقديم الذهب أو رصاص المدافع)، ثم يكتب عن أن اعطاء داى الجزائر بسخاء أكثر قد أطمع رؤساء الشمال الافريقى الآخرين فيقول حرفيا : (لقد رضخنا لتنازلات كثيرة من طرفنا

الى الجزائر ، ان هؤلاء الناس لايفهمون الا لغة واحدة هى التى يجب أن نستعملها ... وهى لغة الرعب)[١٠] .

والواقع أن الأميركيين لم يستجيبوا دائما لمطالب باى تونس ولا لمطالب باشا طرابلس بسخاء كالذى كانوا يبدونه تجاه الجزائر ، وهذا ماأدى الى نفاذ صبر يوسف باشا والى طرابلس حينما تأخر وصـــول الجزية ستة أشهر كاملة ، فقد خاطب القنصل الأميريكى بهذه العبـــارة منذ البداية : (ان الأمريكيين ييسرون الأمور مع الجزائر بينما يحاولون تعسير مصالحهم فى طرابلس ، ويعاملون هذه الدولة بكل شح) . وبدا كأن الأميركيين كانوا يتصرفون لاثارة الباشا فعلا فقد انتظر ستة أشهر كاملة ثم أعلن الحرب على سفنهم العاملة فى البحر الأبيض المتوسط أو حيثما وجدتها سفن رجاله وذلك بتاريخ ١٤ ماى ســـنة ١٨٠١ ، وقد استمرت تلك الحرب خمس سنوا تكاملة وقد كانت ، بالنظر لطبيعتهـــا البحرية ، متقطعة ، وهى أول حرب تقوم بين الولايات المتحدة واحدى دول الشمال الافريقى حتى ذلك التاريخ ، ولقد كانت تلك الحرب شديدة على الجانبين وأبلى فيها الطرفان ، وبالرغم من أن الأميركيين استعملوا (أحمد) ضد أخيه يوسف الذى كان المتولى الفعلى لشؤون البلاد بالرغم من كونه أصغر من أخيه أحمد سنا ، فانتهز هذا الأخير تلك الفرصـــة واستعان بالأميركيين وقام الى جانبهم ، ولكن ذلك لم يفده شيئا ، لأن يوسف ورجاله كانوا محاربين أشداء لايقبلون التنازل ، والأميركيون من جانبهم قاتلوا قتالا عنيدا ، ثم تعب الطرفان ووهنت عزيمة الباشا فى الأخير فقبل الصلح على أساس أن يعطيه الأميركيون ستين ألف دولار كفدية لمائتى رجل أميركى أسير لديه ويرجع اليه الأسرى الطرابلسيين الذين كان عدد الأسرى الأميركيين يفوق عددهم بمائتى رجل كاملة ، حيث ان عدد الأسرى الأميركيين كان ثلاثمائة عند التبادل .

---

(١٠) المصدر السابق ، صـــفحة ١٩٥ / ٩١ .

ساد السلم العلاقات المغربية ــ الأميركية بعد حرب طرابلس ، ولكنه خلالها كان يتأرجح نظرا لوقوع عدة مخادعات بين السفن المغربية فى طنجة والأميركية فى جبل طارق ، فقد عمل وزير السلطان على اظهار السلام لعدد من الدول وممارسة القرصنة على سفنها فى الوقت نفسه ، ووجد الأميركيون أمرا بذلك فى احدى السفن المراكشية التى احتجزوها ثم اكتشفوا أنها سفينة أميركية كان قد ألقى عليها القبض قبل ذلك ، وعليها بحارة مغاربة أما بحارتها الأصليون فقد وضعوا فى الأسفل ، وقد كادت تندلع الحرب لولا أن السلطان تدارك الموقف وأظهر للاميركيين سياسة رقيقة مسالمة ، وتنصل من تصرفات كبار موظفيه وبحارته تنصلا تاما ، ولقد كتب أحد الأميركان الذين تقابلوا مع ملك مراكش آنذاك يصف موقف الملك قائلا :

(... وقفنا أمام الامبراطور وقبعاتنا فى أيدينا وتمت المحادثة عن طريق ترجمان جاء به المراكشيون وقد أبلغنا أن الامبراطور قال انه يأسف للاوامر التى أصدرها حاكم طنجة وأنه سيعاقبه على ذلك ، وكان هذا أكثر مما نرغب أو نأمل ، وبعد أن أكد لنا نه على غير علم بتصرفات القاضى الحشائش أوضح أن جلالته يود تثبيت المعاهدة السابقة ويرغب فى دوامها ، واذا كان والده قد عقدها لمدة خمسين سنة فهو من جانبه يعتبرها قائمة الى الأبد)[11] .

والمعاهدة التى يشير اليها مولاى سليمان هنا ، هى معاهدة ١٧٨٦ فى خصوص الأمن والصداقة بين مراكش والولايات المتحدة ، ويعلق ج . تكر على موقف السلطان هذا بقوله (وهكذا نشر السلم رايته من جديد فى جبل طارق لقد رسخت صداقة الولايات المتحدة مع مراكش

---

(١١) رسالة رالف الى امه فى وصف الأمير الشرقى ، أمير مراكش ، البالغ جيشـــه ٥٠٠٠ ١ جندى ، وهى بتاريخ ١١ اكتوبر ١٨٠٣ كما اثبتهـــا ج . تكر ص ٣٩١ .

أخيرا فأصبح بمقدور « بربل »[١٢] أن ينـــازل طرابلس وهو آمن من الغدر فى مؤخرة اسطوله)[١٣] • وقد كتب « بربل » هذا فى ١٥ أكتوبر من تلك السنة رسالة بهذا المعنى الى وزير الخارجية فى حكومة الولايات المتحدة آنذاك « مارسون » جاء فيها على الخصوص : (ان معاهدة ١٧٨٦ بين الولايات المتحدة ومراكش لاتزال سارية المفعول) ، وأرفق كتـــابه برسالة من السلطان مولاى سليمان الى الرئيس الأميركى جيفرسون لتأكيد هذه الحقيقة [١٤] •

وبعد انتهاء الحرب مع طرابلس فضل الرئيس جيفرسون التخفيف من نشاط الأسطول التجارى الاميركى فى البحر الأبيض المتوسط تهربا من المشاكل الناجمة عن ذلك ، وهى كثيرة فعلا ، وقد رأت الفترة بين ١٨٠٧ و ١٨٠٩ ضعفا متزايدا لعمل الاسطول التجارى الاميركى فى البحر الأبيض المتوسط كنتيجة لتلك السياسة ، وفى كل هذه الفتـــرة ظلت العلاقات بين بلدان المغرب العربى والولايات المتحدة طبيعية تماما حتى كانت سنة ١٨١٢ حين أعلنت الحرب فجأة بين الولايات المتحدة وبريطانيا ، فقد كانت بريطانيا على علاقة أوثق ببلدان المغرب ، واستطاعت أن تؤثر على سياسة داى الجزائر تجاه الولايات المتحدة • وخلال فترة الحرب هذه التى استمرت حتى ١٨١٥ ساءت الأوضاع السياسية المحلية فى الجزائر لدرجة ملفتة للأنتباه ، فقد تم فى سنة ١٨١٤ قتل الحاج على ثم قتل خليفته بعد ذلك بأسبوعين اثنين ، ولم تستقر الأوضاع نسبيا حتى اعتلى المنصب الداى عمر أغا ، وفى فترة الاضطراب هذه وقعت عدة حوادث بين الأسطولين الجزائرى والأميركى فى البحـــر الأبيض المتوسط ، واستطاع القنصل البريطانى اقناع الدايات بعـــدم

---

(١٢) قائد الوحدات الأمريكية ضد طرابلس آنذاك .

(١٣) المصدر السابق ص٣٢٤ .

(١٤) المصدر نفســـه .

أهمية اعتبار الولايات المتحدة فى سياستهم اذا ما قورنت بمصالحهم الكبيرة مع بريطانيا واخلاصها لتعاملها معهم[١٥] .

وبمجرد انتهاء الحرب بين بريطانيا والولايات المتحدة التى انتهت بمعاهدة (غنت) بعث الرئيس الأميركى رسالة الى الكنغرس بتاريخ ٢٣ فبراير ١٨١٥ يطلب فيها الموافقة على « اعلان حالة الحرب القائمة بيننا وبين الجزائر » ، وقد وافق الكنغرس على طلب الرئيس ، ووقعت حرب عنيفة ، اندلعت بسرعة وعنف ولكنها قصيرة العدى ، وكان يقود الاسطول الجزائرى فيها الريس حميدو ، ويقود الاسطول الأميركى « ديكتاتور » ، وبالرغم من أن الكفة كانت راجحة لصالح الأمريكيين فى خصوص عدد السفن وتجهيزها الا أن الاسطول الجزائرى وقف أمامهم بحزم[١٦] وقد قتل فى تلك الحرب الريس « حميدو » قرب جبل طارق وأسرت أحسن قطع أسوله المسماة (مسعودة) ، وكانت تلك السفينة أكبر القطع البحرية التى تتوفر عليها بلدان الشمال الافريقى كله[١٧] . وذلك مما ساعد الأميركيين على مضايقة القطعة الكبيرة الثانية فى الاسطول الجزائرى آنذاك وهى (أوستدو) ذات الأربع وعشرين مدفعا ، ومتابعتها حتى هربت الى المياه الضحلة عند رأس (غادوس) فغرقت فى الوحل ، وعند هذا الحد تجرأ الاسطول الأمريكى لأول مرة على دخول ميناء الجزائر بتاريخ ٢٨ يونيو ١٨١٥ رافعا علم الهدنة الى جانب علم السويد لأن القنصل السويدى آنذاك كان هو الذى يقوم برعاة مصالح أمريكا فى الجزائر ، وعندما تأكد الداى بأنه خسر كثيرا فى تلك الحرب دون فائدة مرتقبة من ورائها قبل الصلح وعادت المياه الى مجاريها .

---

(١٥) راجع كتابنا (محاضرات عن المؤسسات الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسى طبعة الجزائر ، لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع .

(١٦) المزيد من التفاصيل عن الرايس حميدو ومعاركه راجع —
Albert Devaulx, Le Rais Hamidou, Alger 1911.

(١٧) ج . تكر ، ص٦٩٢ .